من تراث

الإمام أبي حفص عمر السهروردي

الرسالة الأولى

رسالة في الإرادة

مقدّمة

هٰذه الرِّسالةُ عبارةٌ عن إحدىٰ عَشْرةَ فائدةً مُنتقاةً مِن كلامِ الشَّيخِ السُّهروردِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ ، لعلَّها مِنْ تَقييداتِ بعضِ مَنْ تَلقَّىٰ عنهُ مباشرةً في حَلَقاتِهِ ، أو مِنْ جَمعِ بعضِ المتأخِّرينَ عنهُ ممَّنِ اطَّلَعَ علىٰ كُتُبِهِ ، فَرَغِبَ في استخراجِ فوائدَ مِنْ كلامِهِ فيها ، فهي ليستْ مِنْ جَمعِ السُّهروردِيِّ ، بدليلِ استفتاحِ النُّسخةِ الَّتي بينَ أَيدينا بقولِ النَّاسخِ : (ومِن كلامِه . . .) أي : كلامِ السُّهروردِيِّ .

وهي تدورُ ـ كما يُشيرُ عُنوانُها ، ويُعلَمُ مِنْ مُطالعةِ مضمونِها ـ حولَ مُصطَلَحَي (الإرادةِ) و(المريدِ) ، وهما مصطلحانِ معروفانِ عندَ أهلِ التَّصوُّفِ ، دائرانِ في كلامِهم[1] ، وقدْ تطرَّقَ إليهما السُّهروردِيُّ نفسُهُ في مواضعَ مِنْ كتابِهِ : « عوارفُ المَعارفِ » .

استُهِلَّت الرسالةُ بتأصيلِ السُّهروردِيِّ للمُصطَلَحَينِ مِن خلالِ آيةِ سورةِ الأنعامِ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[2] ، والتوسُّعِ في بيانِ معنى المريدِ وآدابِهِ وأخلاقِهِ ، وحالِهِ معَ اللهِ تعالىٰ ، وضرورةِ وجودِ شيخٍ بصيرٍ يأخُذُ بيدِ المريدِ ويُعرِّفُهُ طرائقَ المواجيدِ وأسبابَ المزيدِ ، ويُبصِّرُهُ بصفاتِ النَّفسِ وأخلاقِها وشَهَواتِها الخفيَّةِ .

ثمَّ تتابعَتِ الفوائدُ العزيزةُ الَّتي عَنوَنَ لها جامعُها بـ (الفُتوح) ، وجاءَتْ في

---

(١) ينظر : « مُعجَم اصطلاحاتِ الصُّوفيَّة » للكاشانيِّ (ص ٢٧٠) ، و« مُعجَم مُصطَلَحاتِ التَّصوُّفِ الإسلاميِّ » لرفيق العجم (ص ٨٧٦) .

(٢) سورة الأنعام : (٥٢) .

موضوعاتٍ متعدِّدةٍ ؛ مِثلُ كيفيَّةِ التَّخلُّصِ مِنْ كُدوراتِ النَّفسِ ، وأنواعِ الخواطرِ الَّتي تَرِدُ على القلبِ ، ثمَّ الصِّدقِ وأثَرِهِ في فتحِ بابِ العلومِ والإلهاماتِ ، وأخيراً يأتي الكلامُ عن دقائقِ الزُّهدِ ، ومنها : الزُّهدُ في الإلهاماتِ الحاصلةِ للصُّوفيِّ .

والفوائدُ المجموعةُ في الرِّسالةِ عاليةٌ للغايةِ ؛ سواءٌ أكانَ علوُّها في العباراتِ والأساليبِ المُستعمَلةِ فيها ، أم في مَضامينِها الصُّوفيَّةِ الدَّقيقةِ .

وصف النسخ المعتمدة في التحقيق

اعتمدتُ في تحقيقِ هٰذه الرِّسالةِ علىٰ نُسختيْنِ خطِّيَّتينِ :

أُولاهما : النُّسخةُ المحفوظةُ بمكتبةِ شهيد علي باشا ، ضِمنَ المكتبةِ السُّليمانيَّةِ إستانبول ، ضِمنَ مجموعةٍ برقم (٠١٣٩٣ ـ ٠٠٦) ، من الأوراقِ (٦٣أ) إلىٰ (٦٩أ) .

ورَمزتُ لها بـ : (أ) .

وثانيهما : النُّسخةُ المحفوظةُ بمعهدِ المخطوطاتِ العربيَّةِ ، برقم (٢٩ تصوُّف) ، وهي مصوَّرةٌ عن مكتبةِ أمانة بتركيا ، ضِمنَ مجموعٍ برقمِ (١٥/١٧٦٢) ، وفيه : (أسئلةٌ سُئِلَ عنها السُّهرورديُّ وأجوبتُهُ عليها) .

وفي أوَّلِها ذِكرُ اسمِ المُوصَىٰ له ، قال النَّاسخُ : (وَصيَّةٌ أخرىٰ عندَ لُبسِ الخِرقةِ ، للشَّيخِ نصرِ المزيَّنِ رحمَه اللهُ تعالىٰ) .

مِن آخِرِ وَرقةِ (١٧١ب) إلىٰ (١٧٨ب) .

ورمزتُ لها بـ : (ب) .

نماذج من صور المخطوطات

ومن كلامه أيضاً رسالة في الإرادة

قال الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه في هذه الآية خاطب الله تعالى نبيه محمداً عليه السلام في حق أهل الإرادة من فقراء أصحابه وهذه الآية هي الأصل في اصطلاح مشايخ الصوفية على لفظة الإرادة والمريد عند مشايخ الصوفية من نهضت همته لطلب المزيد من الله تعالى

فيقصد في ذلك يوماً ولو بلمسرة ويكون أبداً متطلعاً إلى مزيد افهم عن الله تعالى ومزيد العلم فيما ينفع ويضر ويكشف دقائق النفس وشهواتها الخفية حتى يفطنه الله تعالى بحركة النفس فإن دق وخفي وعلى قدر صفاء القلب المستفاد من كمال الاستقامة يكون شعوره بدقي حركة النفس والله الموفق والمعين

نسخة مكتبة شهيد علي تركيا (أ)

نسخة معهد إحياء المخطوطات العربية

(ضمن « أسئلة سُئل عنها السهروردي ») (ب)

نسخة معهد إحياء المخطوطات العربية

(ضمن « أسئلة سُئل عنها السهروردي ») (ب)

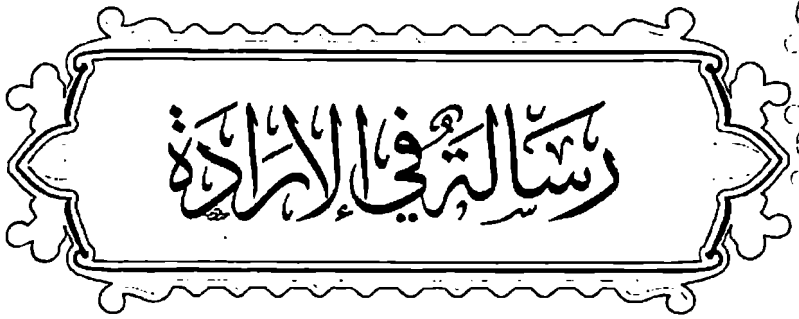
رسالة في الإرادة

ومِنْ كلامِهِ[1] :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[2] ، في هٰذه الآيةِ خاطبَ اللهُ تعالىٰ نَبيَّه محمَّداً عليه السلام في حقِّ أهلِ الإرادةِ مِنْ فُقراءِ أصحابِهِ ، وهٰذه الآيةُ هي الأصلُ في اصطِلاحِ مَشايخِ الصُّوفِيَّةِ علىٰ لَفظَةِ الإرادةِ .

والمُريدُ عندَ مشايخِ الصُّوفيَّةِ : مَن نهَضَتْ هِمَّتُهُ لطلبِ المزيدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وكلَّما نالَ خيراً ، وظَفِرَ بمُرادٍ مِنْ مَواهبِ اللهِ تعالىٰ . . تَطلَّعَ وتَشوَّفَ إلىٰ غيرِهِ ، وما دامَ هو ناهِضَ الهِمَّةِ دائمَ الطَّلَبِ للمَزيدِ . . هو مُريدٌ ، فإذا فَتَرَ عن طلَبِ المزيدِ ، وقَنَعَ بالموهوبِ لهُ . . حَصَلَ في التَّراجُعِ ، وزالَتْ عنهُ هِمَّةُ الإرادةِ .

وعندَ مشايخِ الصُّوفيَّةِ : موتُ هٰذا خيرٌ مِن حياتِه ؛ لأنَّ طريقَ الحقِّ سُبحانَهُ متىٰ لمْ يكُنِ المُريدُ فيهِ في الزِّيادَةِ . . فهو في النُّقصانِ ، والنُّقصانُ عَينُ الخُسرانِ ، وإذا استَمَرَّت خَسارةُ العبدِ . . فمَوتُه خيرٌ مِن حياتِهِ .

والمُريدُ في إرادتِهِ لا بُدَّ لهُ مِنْ شيخٍ ذي بَصيرةٍ ، يَسلُكُ بهِ ويُعَرِّفُهُ طرائِقَ المواجيدِ[3] وأسبابَ المزيدِ ، ويُبَصِّرُهُ بصفاتِ النَّفسِ وأخلاقِها وشَهَواتِها الخَفِيَّةِ ؛ لأنَّ مَعرفةَ النَّفسِ هو أساسُ طريقِ الصُّوفِيَّةِ ، حيثُ كانَ معرفةُ النَّفسِ مَقروناً بمعرفَةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ ما وَرَدَ : « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ . . فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ »[4] .

---

(١) في (ب) ـ والَّتي استَلَلتُها مِن : « أسئلةٌ سُئلَ عنها الشِّهروردِيُّ وأجوبتُه عليها » ـ صدَّرها النَّاسخُ بقولِه : (وصيَّةٌ أُخرىٰ عند لُبسِ الخِرقَةِ ؛ للشَّيخِ نَصرِ المزَيِّنِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ) .

(٢) سورة الأنعام : (٥٢) .

(٣) قال القُشيريُّ في « الرِّسالة » (ص ٢٤٦) : (المواجيدُ ثمراتُ الأورادِ ؛ فكلُّ من ازدادت وظائفُه . . ازدادت مِنَ اللهِ لطائفُه) .

(٤) قال النَّووي في « الفتاوىٰ » (ص ٢٤٨) : (ليس هو بثابتٍ ؛ ولو ثَبَتَ كان معناه : مَن عَرَفَ نَفْسَه بالضَّعفِ والإفتقارِ إلى الله تعالىٰ ، والعبوديَّةِ له . . عَرَفَ رَبَّه بالقُوَّةِ والقَهرِ والرُّبوبيَّةِ والكمالِ المُطلَقِ والصِّفاتِ العُليا ، ومَن عَرَفَ رَبَّه بذٰلك . . كَلَّ لسانُه عن بُلُوغِ حقيقةِ شُكرِه والثَّناءِ عليه) .

وفي المعارفِ رُتَبٌ ومنازلُ ، وبِحَسَبِ ذٰلك للعارِفينَ رُتَبٌ في معرفةِ النَّفسِ .

وأهلُ المعرفَةِ يَنقَسِمونَ إلى : الأبرارِ ، والمقَرَّبينَ .

فلِلأَبرارِ : معرفةٌ بالنَّفسِ ببَعضِ حَرَكاتِها ، وَوُثوبِها وشَهَواتِها .

ولِلمُقرَّبينَ : معرفَةٌ بها فوقَ ذٰلكَ ، وكَمْ مِنْ عَمَلٍ هو عينُ الطَّاعَةِ في نَظَرِ الأبرارِ ومَبلَغِ عِلمِهم بالنَّفسِ ، وذٰلكَ العَمَلُ مَعصِيةٌ في حالِ المقرَّبينَ ؛ لدِقَّةِ نظَرِهِم في حالِ النَّفسِ ، وكمالِ عِلمِهم بها ، ولهٰذا قيلَ : (حسناتُ الأبرارِ سَيِّئاتُ المقرَّبينَ)[1] .

ولا يَقدِرُ علىٰ تفاصيلِ فوائدِ المقاماتِ والأحوالِ ، ومعرفةِ الآفاتِ المُفْضِيَةِ إلىٰ فسادِ الأعمالِ . . إلَّا أربابُ البَصِيرَةِ مِنْ مَشايخِ الصُّوفيَّةِ ؛ حتَّىٰ إنَّ العلماءَ بأحكامِ الشَّرعِ الَّذينَ لهم عِلمُ المسائلِ والفَتوىٰ ، مِنْ غيرِ زُهدٍ في الدُّنيا ، وتَحقُّقٍ بصِرْفِ التَّقوىٰ ، وَوُقوفٍ علىٰ علمِ القُلوبِ . . هُم بالقُصُورِ عن دَرَكِ شَأْوِ مشايخِ الصُّوفيَّةِ ، مُشاكِلونَ للعوامِّ ؛ فإنَّ العلومَ لهٰؤلاءِ القَومِ مِيراثُ التَّقوىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[2] ، جعلَ العِلمَ مَعْذُوقاً[3] بالتَّقوىٰ ، وقالَ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[4] ، نفَى العِلمَ عن غيرِ التَّقِيِّ .

فإذاً ؛ مَن يَحوِي العُلومَ مِن غيرِ زُهدٍ وتَقوىٰ هو وِعاءٌ للعِلمِ ، ولا يكونُ عالماً إلَّا إذا عامَلَ اللهَ بالتَّقوىٰ .

فإذاً ؛ تَبيَّنَ للمُريدِ الصَّادِقِ الطَّالبِ لسُلوكِ طريقِ الحقِّ أنَّهُ مُفتَقِرٌ إلىٰ صُحبَةِ

---

(١) أخرَجه ابنُ عساكرَ في « تاريخ دمشق » (١٣٧/٥) ، من قول أبي سعيد الخرَّازِ ، بلفظ : (ذُنُوبُ الْمُقَرَّبِينَ حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ) .

(٢) سورة البقرة : (٢٨٢) .

(٣) أي : مربوطاً مُعلَّقاً .

(٤) سورة فاطر : (٢٨) .

شيخ ذي بَصيرةٍ ؛ يَهديهِ إلىٰ مَقاماتِ القُرْبِ ، وحقيقةِ العُبوديَّةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ لنَبيِّه عليه السلام : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾[1] ، فصارَ الشَّيخُ الموَفَّرُ حَظُّهُ مِنْ مُتابعَةِ الرَّسولِ داعياً إلى اللهِ تعالىٰ ، ولهٰذا وردَ في الكلامِ المأثورِ : « ٱلشَّيْخُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ »[2] ، وقالَ عليه السلام : « عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ »[3] ؛ لهُم إلهامٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ في يَقظَتِهِم ، وبشائرُ في مَنامِهِم .

هٰكذا عُلَماءُ الأُمَّةِ ، الزَّاهِدونَ في الدُّنيا ، المتَمسِّكونَ بِعُرَى التَّقوىٰ . . لهُم بشائرُ وإشاراتٌ في اليَقظَةِ والمنامِ ، ولهُم رُتبَةٌ في المُكالمَةِ والمُحادَثةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ ﴾[4] .

فالوحيُ بواسِطَةِ المَلَكِ يَختَصُّ بهِ الأنبياءُ والمرسَلونَ ، والكلامُ مِنْ وَراءِ حِجَابٍ يكونُ للأنبياءِ غيرِ المرسَلينَ ، ولِعُلماءِ الأُمَّةِ والمشايخِ الَّذينَ لهُم رُتبةُ القُدوةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ تَعليماً لعبادِهِ ، وتَدريجاً لهُم إلىٰ سُؤالِ الرُّتَبِ العاليَةِ ، والمواهبِ السَّنِيَّةِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[5] .

وهٰذا يدُلُّ علىٰ أنَّ في هٰذه الأُمَّةِ طائِفةً هُم قُدوةُ المتَّقينَ ، ولا يزالُ في كلِّ حِينٍ وأَوَانٍ ، وعَصرٍ وزَمانٍ . . مِنهُم في البلادِ آحادٌ وأفرادٌ ، يَقِلُّ عدَدُهُم ؛ لأنَّهم أُقيمُوا في أَعَزِّ المَقاماتِ وأسْنَاها ، يَقتَدِي بهِمُ المُريدُونَ الصَّادِقونَ السَّالِكونَ

---

(١) سورة يوسف : (١٠٨) .

(٢) أخرَجه ابنُ حبَّان في « المجروحين » (٣٩/٢) ، من حديثِ سيدنا ابنِ عمرَ رضي الله عنهما ، بنحوِه .

(٣) انظر « اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة » (ص ١٦٧) .

(٤) سورة الشورىٰ : (٥١) .

(٥) سورة الفرقان : (٧٤) .

لطريقِ الحقِّ ، ويَقْتَبِسُونَ مِنهُم عِلمَ الوِراثَةِ ؛ كما يُقتبَسُ مِنْ عُلَماءِ اللِّسانِ عِلمُ الدِّراسَةِ .

ورُتبَةُ المشيَخَةِ المُكْسِبَةِ عِلمَ الوِراثَةِ . . تَصِحُّ في أحَدِ الرَّجُلَينِ :

مُحِبٌّ : فاتَحَهُ الحقُّ بمَواهِبِ المعاملاتِ ، ووَفَّقَهُ في بِدايَتِهِ للمُكابَداتِ والمجاهَداتِ ، أَسْهَرَ ليلَهُ وأَظْمَأَ نهارَهُ ، صادقاً مُخلِصاً ، يَبتَغِي بذلكَ وجهَ اللهِ تعالىٰ ، فَيُرَقِّيهِ اللهُ تعالىٰ بعدَ طُولِ المجاهَداتِ والمُكابَداتِ مِنْ وهَجِ[1] المجاهَدَةِ إلىٰ رَوحِ الحالِ ؛ فيَهتَدِي قلبُهُ إلىٰ مَنازِلِ القُرْبِ ، ويُنازِلُ باطِنَهُ الأُنسُ والرَّوحُ ؛ فتَزُولُ مجاهَدَتُه ، وتَتبَدَّلُ بأعمالِ القلبِ عن أعمالِ القالَبِ ، سِوى الفرائضِ الَّتي لا يسَعُ المؤمِنَ الإخلالُ بها ؛ فيكونُ عمَلُهُ بالقلبِ هو دَوامَ المراقبَةِ للهِ تعالىٰ دائماً لا يَنقَطِعُ عملُهُ ، ويكونُ لهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ تَجَلِّياتٌ وكُشُوفٌ بطريقِ الأفعالِ ؛ فَيَنْسَلِخُ مِنْ إرادَتِهِ واختيارِهِ ، ويكونُ قائماً في الأشياءِ لا بإرادَةِ نفسِهِ ، فلا يختارُ صُورَةً وهَيئةً وفَضِيلةً بنفسِهِ ؛ بلْ بما يُطلِعُهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ مُرادِهِ منهُ ، فيكونُ قائماً في الأشياءِ بمُرادِ اللهِ تعالىٰ لا بمُرادِ نَفسِهِ ، ويكونُ مُكلَّماً مُحدَّثاً مُلْهَماً ، علىٰ بَصيرةٍ مِنْ أمرِهِ ، فيَتَّخِذُهُ اللهُ تعالىٰ أميناً ، ويَرُدُّ عليهِ أقساماً مِنَ الدُّنيا وحُظوظاً ؛ رِفقاً بهِ ، ونِعمَةً في حَقِّهِ ؛ لأنَّهُ في مَقامِ الأُمَناءِ لا يَفتَتِنُ بها ؛ بل يَتقَوَّىٰ بها ، وتكونُ الدُّنيا خادِمَتَهُ لا مَخدُومَتَهُ ، والدُّنيا تَحسُنُ خادِمَةً ، وتَقبُحُ مَخدومةً ؛ فتَطلُبُهُ الأقسامُ ولا يَطلُبُها ، ويَطلُبُهُ الجاهُ ، ولا يَطلبُهُ ، ويجعلُ اللهُ تعالىٰ لهُ مَحبَّةً في قُلوبِ المؤمنينَ ؛ فيَصِيرُ وِعَاءُ قلبِهِ بما أُتيحَ لهُ فيَّاضاً ؛ فتَسرِي مِنْ باطِنِهِ الأنوارُ إلىٰ بَواطِنِ الأتباعِ والمريدينَ ، فيَحْيَا بهِ المريدُ الصَّادِقُ ، ويَهتَدِي بِواسِطَتِهِ إلىٰ مَقاماتِ القُرْبِ .

والرَّجُلُ الآخَرُ : أعلَىٰ مِن هٰذا ؛ وهو مَحبُوبٌ مُرادٌ : فاتَحَهُ الحقُّ أوَّلاً بِصِرْفِ

---

(١) أي : حرُّ النَّار . « الصِّحاح » (و هـ ج) .

المعرِفَةِ ، ورَفَعَ عن قلبِهِ الحجابَ ؛ كما قالَ أميرُ المؤمنينَ عليٌّ رضي الله عنه : (لو كُشِفَ الغِطاءُ . . ما ازدَدْتُ يَقِيناً)[1] ، فيَلتَهِبُ قلبُ هٰذا بمَحبَّةِ اللهِ الخاصَّةِ ، وتُكاشَفُ رُوحُهُ بآثارِ العَظَمَةِ الإلٰهيَّةِ ؛ فيَزهَدُ فيما سِوى اللهِ تعالىٰ ، وأهوَنُ ما علىٰ هٰذا رفضُ الدُّنيا وتركُها مالِها وجاهِها ؛ لأنَّ المالَ والجاهَ يَستَحلِيهِ الهوَىٰ ، وقلبُ هٰذا ظَفِرَ بحلاوَةِ المحبَّةِ ؛ فما بَقِيَ لحلاوَةِ الهوىٰ عندَهُ قَدْرٌ .

ثمَّ يُدَرِّجُهُ اللهُ تعالىٰ بعدَ هٰذه المكاشَفَةِ والموهبَةِ في رُتَبِ الأعمالِ ؛ فيأتي بالأعمالِ مِنْ غيرِ مُكابَدَةٍ ومُجاهَدَةٍ ؛ بخلافِ الرَّجُلِ الأوَّلِ ، حيثُ كانَ فيها مُكابِداً ومُجاهِداً ، ولمَّا كانَتِ الأعمالُ لهٰذا ؛ لا بمُكابدَةٍ تَدومُ عليهِ إلى الممَاتِ ، ولا يَنسَلِخُ مِنَ الأعمالِ ؛ لأنَّ الرَّجُلَ الأوَّلَ تَرَكَ الأعمالَ مُتَعوِّضاً عنها بطِيبَةِ قلبِهِ معَ اللهِ تعالىٰ ؛ فكأنَّه عُوِّضَ للأحوالِ عَنِ الأعمالِ ، والرَّجُلُ الثَّانِي أُدرِجَتْ لهُ الأحوالُ في الأعمالِ ؛ فصارَتْ أعمالُهُ مَزِيداً لأحوالِهِ ، وأحوالُهُ مُكمِّلةً لأعمالِهِ ، وهٰذا الغايةُ القُصوىٰ ، والموهِبَةُ الأسنَىٰ ؛ فكانَ باطنُ هٰذا الرَّجُلِ أكثرَ نُوراً ، ورُوحُهُ أكمَلَ قُرباً ، وقلبُهُ أكثرَ انشِراحاً وانفِساحاً ، ومواهبُ اللهِ تعالىٰ نحوَهُ أكثرَ توجُّهاً وانصِبَاباً ؛ فصارَ قلبُهُ أكثرَ فَيَضاناً ، وحالُهُ إلىٰ بَواطنِ المريدينَ أَسْرَعَ سِرايَةً ؛ فكانَ بالقُدوَةِ أحقَّ ، وبالمشيَخَةِ أولَىٰ .

وغيرُ هٰذينِ الرَّجُلَينِ في طريقِ الحقِّ . . آخَرانِ لا يَصلُحانِ للِاقتداءِ ، ولا يُؤهَّلانِ للمَشْيَخَةِ :

أحدُهما : مُتعبِّدٌ لمْ يَستَعِدَّ باطنُهُ لكمالِ التَّقوىٰ وكمالِ الزُّهدِ ، فصِفاتُ نفسِهِ عليهِ باقيةٌ ، لا يَرتَقِي مِنْ وهَجِ المكابدَةِ إلىٰ رَوحِ الحالِ ؛ فهو عبدٌ مبارَكٌ

---

(١) نَسَبَه القُشيريُّ في « الرِّسالة » (ص ٤٣٤) إلىٰ عامرِ بن عبد القَيسِ ، وقال ابن قيِّم الجوزيَّة في « مدارج السَّالكين » (٢/٤٠٠) : (ليس هٰذا من كلامِ رسولِ اللهِ ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ ولا من قولِ علي كما يظنُّه مَن لا عِلمَ له بالمنقولاتِ) .

مَرحومٌ ، تُرجَىٰ بينَ الأُمَّةِ بَرَكتُه وبَرَكةُ دُعائِهِ ، وهو صالِحٌ لنَفسِهِ غيرُ صالِحٍ لغيرِهِ ، فلو عادَ إلىٰ مُخالطَةِ الخلقِ . . افتُتِنَ ، وانقطعَ عليهِ طريقُهُ ، فلَا يَصلُح إلَّا للوَحدَةِ ، فهي ملاكُ أمرِهِ ، وصَلاحُ شأنِهِ .

والرَّجُلُ الآخَرُ : مَجذوبٌ أدركتْهُ جَذْبَةٌ مِنْ جَذَباتِ الحقِّ ؛ فوجدَ قلبُهُ لوائحَ الرَّوحِ والأُنْسِ ، فهو في طِيبَةِ قلبِهِ يُؤدِّي الفرائضَ فحَسْبُ ، ولا يَرىٰ كَثْرةَ الأعمالِ ، ويَسهُلُ عليهِ تركُ الدُّنيا ، وتَهُونُ عليهِ العُزلَةُ والوَحدَةُ ، ورُبَّما أَنِسَ بالقِفَارِ والكُهوفِ والصَّحارَىٰ ، وكانَ دائمَ الأُنْسِ بِرَبِّهِ ؛ فهو صحيحٌ في نفسِهِ مَلطوفٌ ، تُستَجابُ دعوتُهُ ، وتُرجَىٰ بَرَكتُهُ ، ولٰكن لا يَصلُحُ للقُدوةِ والمشْيخَةِ .

ومَن أُقِيمَ في مَقامِ المشْيخَةِ . . جُعِلَ أبا المريدينَ[1] ؛ فيولَدُ لهُ الأولادُ المعنَويَّةُ ، ويكونُ منهُ أمثَالُ هٰذا المجذُوبِ وذاك المتعبِّدِ أولاداً ، ويكونُ لهُ مِثلَ الرَّجُلَينِ الآخَرَينِ أولادٌ[2] ، علىٰ قَدْرِ ما جَعَلَ الحقُّ تعالىٰ حَظَّه ونَصِيبَه .

فإذاً ؛ المريدُ ولَدٌ ، والشَّيخُ والِدٌ ؛ لأنَّ الولادةَ ولادتانِ : طَبِيعِيَّةٌ ، وحقيقِيَّةٌ .

ولهٰذا وَرَدَ في بعضِ ما وَرَدَ : « لَنْ يَلِجَ مَلَكُوتَ ٱلسَّماءِ مَنْ لَمْ يُولَدْ مَرَّتَينِ »[3] .

فالولادةُ الطَّبِيعِيَّةُ : لإقامةِ رُسُومِ المُلكِ وعالَمِ الشَّهادةِ .

والولادةُ المعنَويَّةُ : لمطالَعةِ أجزاءِ الملَكُوتِ وعالَمِ الغَيبِ والقُدرَةِ .

فالنَّبِيُّ عليه السلام أبو الأُمَّةِ[4] ، والشَّيخُ أبو المريدينَ[5] ، نابَ فيهم مَنابَ النَّبِيِّ عليه السلام ؛ لحُسْنِ الإقتداءِ والمتَابَعَةِ .

---

(١) في (ب) : (أباً للمُريدينَ) .

(٢) في (ب) : (أولاداً أو ولَدينِ أو ولداً) .

(٣) لم أقف عليه في دواوين السنة المعتمدة ، وأوردَه الشيخ نِظام الدِّينِ النَّيسابوري في : « غرائبِ القرآنِ ورغائبِ الفُرقانِ » (٥/٣٧٥) ، عن سيدنا عيسىٰ عليه السَّلام .

(٤) في (ب) : (أبٌ للأمَّةِ) .

(٥) في (ب) : (أبٌ للمريدينَ) .

وكما أنَّ في الولادةِ الطَّبيعيَّةِ رَضَاعاً وفِطاماً . . هٰكذا في الولادةِ المعنويَّةِ ؛ يحتاجُ المريدُ إلىٰ مُلازمةِ الشَّيخِ ، ودوامِ الصُّحبَةِ ؛ حتَّىٰ يَستَفِيدَ منهُ ، ويَنتَفِعَهُ لَفظُهُ ولَحْظُهُ[1] ، وقدْ قيلَ : (مَنْ لَا يَنْفَعُكَ لَحظُهُ . . لا يَنْفَعُكَ لَفْظُهُ)[2] ، ومعنىٰ كَونِهِ ينفعُهُ لَحظُهُ لوجهَينِ :

أحدُهما : أنَّه إذا نظرَ إليهِ وإلىٰ أعمالِهِ ، وما يَعتَمِدُه معَ الحقِّ ومعَ الخَلقِ ، في خَلْوَتِه وجَلْوَتِهِ ، وأخلاقِه وآدابِه . . يتعلَّمُ منهُ ذٰلكَ ويَقتدِي بهِ .

والوجهُ الآخَرُ : أنَّ المريدَ لموضعِ صِدْقِهِ ، وكمالِ مَحبَّتِهِ للشَّيخِ ؛ كلَّما نظرَ إلى الشَّيخِ نَظَرَ مَحبَّةٍ ، ونَظَرَ الشَّيخُ إليه نَظَرَ مَحبَّةٍ . . تَولَّدَ مِنْ نَظَرِ الشَّيخِ إليهِ في باطنِهِ نورٌ وبرَكةٌ ، يَنعَقِدُ منهُ في باطنِ المريدِ خيرٌ مُتجَوهِرٌ ؛ كما يَنعقِدُ الدُّرُّ في الصَّدَفِ .

وإذا كانَ مِنَ الخاصِّيَّةِ أنَّ في الحيَّاتِ ما إذا نظرَ في الشَّخصِ ونظرَ الشَّخصُ إليهِ هلكَ . . فماذا يُستَبعَدُ أنْ يكونَ في نظرِ بعضِ عبادِهِ خاصِيَّةُ الإحياءِ ؟!

وإذا صَحِبَ المريدُ الصَّادِقُ الشَّيخَ . . فأدَبُهُ أنْ يخرُجَ مِنْ إرادَتِهِ واختيارِهِ معَ شَيخِهِ ؛ لا يأكلُ إلَّا ما يُطعِمُهُ ، ولا يَلبَسُ إلَّا ما يُلبِسُهُ ، ولا يَسكنُ إلَّا حيثُ يُسكِنُهُ ، ولا يَدخُلُ في شيءٍ قَلَّ أو جَلَّ إلَّا بأمرِهِ واختيارِهِ ؛ كالطِّفلِ معَ الوالدِ ؛ لأنَّ الشَّيخَ معَ اللهِ تعالىٰ هٰكذا يَعمَلُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في دُعائِه : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱكْلَأْنِي كَلَاءَةَ ٱلْوَلِيدِ »[3] ، « لَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ

---

(١) قال السُّهروردِيُّ : (إنَّ للمريدينَ مِنَ الشُّيوخِ أوانَ ارتضاعٍ وأوانَ فِطامٍ . . . فأوانُ الإرتضاعِ أوانُ لزومِ الصُّحبةِ ، والشَّيخُ يعلمَ وقتَ ذٰلك ، فلا ينبغي للمُريدِ أن يُفارقَ شيخَه إلَّا بإذنِه . . . ولا يأذنُ الشَّيخُ للمُريدِ في المفارَقةِ إلَّا بعد علمِه بأن آنَ له أوانُ الفِطامِ ، وأنَّه يَقدِرُ أن يَستقِلَّ بنَفسِه ، واستقلالُه بنفسِه أن يُفتحَ له بابُ الفهمِ مِنَ اللهِ تعالىٰ) . « عَوارف المَعارف » (٩٥/١) .

(٢) أورده المؤلف في « عوارف المعارف » (١٠٤/١ ، ٢٦٣) .

(٣) نَسَبَه الكَلاباذِيُّ في « بحر الفوائد » (٣٨٠) إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وهو مِن أدعيةِ الشَّيخ أبي طالبٍ المكِّيِّ في كتابه « قُوت القلوب » (٢٦/١) .

عَيْنٍ »[1] ، وهٰذا هو الإنسِلاخُ مِنَ الإرادةِ مع اللهِ تعالىٰ ، والتَّبرِّي مِنَ الحَولِ والقُوَّةِ ؛ وهو حقِيقةُ العُبودِيَّةِ .

وإذا صحَّ العبدُ في هٰذا المقامِ ، وتبرَّأ مِن حَولِهِ وقُوَّتِهِ ، وقامَ في الأشياءِ باللهِ لا بنفسِه . . كان مِنْ أوتادِ الأرضِ .

فالمريدُ لا طريقَ لهُ إلى الحقِّ ، فصارَ الشَّيخُ عندَهُ باباً مِنْ أبوابِ الحقِّ ؛ يرجعُ إليهِ ، ويتبرَّأُ مِنْ إرادتِهِ واختيارِهِ إليهِ ، كما أنَّ الشَّيخَ معَ اللهِ كذٰلكَ ، ويصلُ برعايةِ هٰذا الأدبِ والقيامِ بهٰذا الشَّرطِ معَ الشَّيخِ إلىٰ رُتبةٍ يصيرُ معَ اللهِ تعالىٰ هٰكذا ، ويُفتَحُ عليهِ بابُ المكالمةِ ؛ كما هو مفتوحٌ على الشَّيخِ ، فعندَ ذٰلكَ يكونُ أَوانُ فِطامِ المريدِ ، يجوزُ أن يأمرَهُ الشَّيخُ بالمفارَقةِ ؛ فيُفارِقَ الشَّيخَ ، ويصيرَ مُستقِلّاً بنفسِهِ ؛ يَعمَلُ بإذنِ اللهِ كما يعملُ بإذنِ الشَّيخِ .

ومتىٰ لمْ يَصِلْ إلىٰ هٰذه الرُّتبةِ . . فلِقُصورٍ في إرادتِهِ ، أو لنُقصانِ حظِّهِ مِن مواهبِ الحقِّ ، أو لا يكونُ مُراداً بأنْ يَبلُغَ مَبلَغَ الرِّجالِ ؛ فيَحظَىٰ ببعضِ البَركةِ مِنْ صُحبَةِ الشَّيخِ ، ويُفارِقُهُ على القُصورِ ، وذٰلكَ حظٌّ ضعيفٌ يُخشَىٰ عليهِ بالمفارَقةِ دخولُ الآفاتِ عليهِ ، المُفضِيَةِ إلى الأعلالِ والأمراضِ القلبيَّةِ المنحرِفةِ بمِزاجِ التَّوبةِ والإستقامةِ عن حدِّ الإعتدالِ ؛ لِانحرافِ مِزاجِ القلبِ ، وما أَسرَعَ ما يكونُ رُجوعُه إلى الدُّنيا بعدَ الزَّهادةِ ، وانخِلاعُهُ مِنْ مُلازمةِ العبادةِ ، والرُّكونُ إلى العادةِ !

وهٰذا المرضُ في هٰذهِ الولادةِ المتَولِّدُ مِنْ مُفارَقةِ الشَّيخِ في غيرِ أوانِه . . كالمرضِ الَّذي يَعتري الرَّضيعَ إذا فُطِمَ لغيرِ أوانِهِ .

---

(١) أخرَجه أبو داوُود (٥٠٩٠) ، وابنُ حبَّان في « الصَّحيح » (٩٧٠) من حديث سيدنا أبي بَكرَةَ رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ : اللَّهُمَّ ؛ رَحْمَتَكَ أَرْجُو ، فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ » .
وأخرَج ابنُ أبي عاصمٍ في « الآحاد والمثاني » (٢٩٢٥) من حديثِ رجلٍ من الصَّحابةِ لم يُسمِّه ، قال : أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ أُحُدٍ : « يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ ؛ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ ، أَغِثْنِي كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ » .

وكلُّ هٰذا التَّآلُفِ والتَّلازُمِ والصُّحبةِ . . للمُريدينَ الصَّادقينَ السَّالكينَ غيرِ المحبّينَ للشَّيخِ المتبرّكينَ بهِ القانِعينَ بأدنىٰ حظٍّ منهُ مِنَ الإلمامِ بمَجلِسِهِ وسَماعِ كلامِهِ في بعضِ الأحاييِن ؛ فإنَّ هٰؤلاءِ قدْ يُسَمَّونَ مُريدينَ ، ويكونُ هٰذا الإسمُ عليهم اسماً رسمِيّاً لا حقِيقيّاً ، ولا يَعدِمُونَ بهٰذا القَدْرِ بركةً وخيراً .

فالمريدُ الحقيقيُّ يُلبِسُهُ الشَّيخُ خِرقةَ الإرادةِ بعدَ أنْ يُلبِسَ المريدُ باطنَه خِرقةَ الإنخلاعِ عن إرادةِ نفسِهِ واختيارِهِ .

والمريدُ الَّذي هو مِنَ المحبّينَ يُلبِسُهُ الشَّيخُ خِرقةَ التَّبرُّكِ ، ولا يُشتَرطُ في خِرقةِ التَّبرُّكِ دوامُ الصُّحبةِ والملازمةِ ؛ بلْ يتشبَّهُ المريدُ بلُبسةِ المريدينَ ، ويحفظُهُ مع الشَّيخِ رابِطةُ المحبَّةِ ، ويَنالُهُ بقَدْرِ مَحبَّتِهِ بركةٌ وخيرٌ .

فخِرقةُ التَّبرُّكِ مَبذولةٌ لكلِّ محبٍّ أَحسَنَ الظَّنَّ وطلبَها ، وخِرقةُ الإرادةِ ممنوعةٌ ؛ إلَّا لمَنْ شَمَّرَ عن ساقِ الجِدِّ ودخلَ الطَّريقَ ، مُهاجِرَ الهوىٰ ، مُمتَطِياً غارِبَ[1] التَّقوىٰ ، مُنسلِخاً عن إرادتِهِ ، مخرِّباً أوطانَ عادتِهِ ، مُتحقِّقاً برعايةِ أمرِ الحقِّ ، قاطعاً نظرَهُ عنِ الخلقِ ، يَرى الخلقَ في الدُّنيا كما يراهُم يومَ القيامةِ ، لا يَتقيَّدُ بهِم ولا باستِحسانِهِم واستِقباحِهم ؛ فالقبيحُ عندَهُ ما قبَّحَهُ الشَّرعُ ، والحسَنُ عندَهُ ما حسَّنَه الشَّرعُ[2] .

---

(١) الغارِبُ : أعلىٰ كلِّ شيءٍ . انظر « الوسيط » (غ ر ب) .

(٢) لقد شغلت قضيَّةُ الحُسنِ والقُبحِ في الأفعالِ حيّزاً كبيراً في فكرِ المعتزلةِ والأشاعرةِ علىٰ حدٍّ سواء ، وكلٌّ مِنَ المعتزلةِ والأشاعرةِ يسيرُ في ذٰلك وَفقَ نظرته لقُدرةِ اللهِ تعالىٰ وعَدلِه من جهةٍ ، وإلى استقلاليَّةِ قدرةِ الإنسانِ وعدمِ استِقلاليَّتِها مِن جهةٍ أُخرىٰ .

وقد يطول الكلام في الأمرِ ويَتفرَّعُ لو رُحنا نَتتبَّعُ مَراميَه ، وهو علىٰ وجه الإجمالِ عند المعتزلةِ : أنَّ اللهَ أعطَى الإنسانَ قدرةً جعلَها مُستقِلَّةً ؛ بها يتَصرَّفُ ، وعلىٰ أسابِها يُكلَّفُ ، ثمَّ يُجازَىٰ ؛ إن خيراً . . فخيرٌ ، وإنْ شرّاً . . فشرٌّ ، وهٰذا هو عدلُ اللهِ تعالىٰ ، ولهٰذا فالحُسنُ والقبحُ عندهم ذاتيان .

أمَّا السَّادةُ الأشاعرةُ : فهم يرونَ أنَّ الحُسْنَ والقُبْحَ لا يخرجانِ عن إطارِ أمرِ اللهِ تعالىٰ ونَهيِهِ ، وأنَّه لا قبيحَ إلَّا ما قبَّحَه الشَّرعُ ، ولا حَسَنَ إلَّا ما حسَّنَه الشَّرعُ .

قال الإمامُ الجوينيُّ : (ليس الحُسْنُ صفةً زائدةً على الشَّرعِ مدركةً به ، بل الحسنُ عبارةٌ عن نفسِ ورودِ الشَّرعِ بالثَّناءِ علىٰ فاعلِه ، وكذٰلك القُبحُ) . انظر « الإرشادُ » (ص ٢٥٩) . ←

تبرَّأَ مِنْ كلِّ تَكلُّفٍ ، ولو رأىٰ صِحَّةَ حالِهِ أنْ يَدخُلَ الأسواقَ ويَكتَسِبَ . . يفعلُ ذٰلك ، وإنْ رأىٰ صِحَّةَ حالِهِ أنْ يَعمَلَ بالرُّوزغارِ[1] . . كانَ يفعلُ ذٰلكَ ، ولا يأنفُ أنْ يطوفَ على الأبوابِ ويطلُبَ اللُّقَمَ يَسُدُّ جَوعتَهُ إذا رأىٰ صِحَّتَه في ذٰلكَ ، وأدَّاه حُكمُ الوقتِ إليهِ .

وللمُريدينَ معَ المشايخِ في ذٰلكَ كلِّهِ أُسوةٌ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والَّذِين بايعوهُ ؛ حيثُ قالوا : بايَعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على السَّمعِ والطَّاعةِ في السَّراءِ والضَّراءِ ، والمَنشَطِ والمَكرَهِ[2] .

وقدْ نبَّهَ الحقُّ في كلامِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ علىٰ غايةِ الأدَبِ بأوفَىٰ ما يُعبَّرُ عنهُ ، فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[3] ، وهٰذا فصلُ الخِطابِ ، وغايةُ أدبِ ذَوي الألبابِ ، الطَّالبينَ لحُسنِ الأدبِ معَ المشايخِ .

وأمرَ اللهُ تعالى الأمَّةَ بالتَّحكيمِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يَنزِلُ بهِم مِنَ الحوادثِ ، وإنْ كانَ سببُ نزولِ الآيةِ ما شَجَرَ بينَ الزُّبيرِ بنِ العوَّامِ وغيرِهِ

← والموضوعُ كلُّه يدورُ حول عدلِ الله تعالىٰ وتنزيهِهِ ، ومحاولةُ كلِّ فريقٍ إثباتَ مَذهبِه حَسَبَ ما تُمليه عليه مُحصِّلةُ نَظرِه ، ولكلِّ وِجهةٌ هو مُوَلِّيها ؛ فلا الأشاعرةُ ينكرونَ العقلَ وقدرتَه على التَّحسينِ والتَّقبيحِ ، ولا المعتزلةُ ينكرونَ قدرةَ اللهِ تعالىٰ ، ولا علىٰ توجيه الشَّرعِ بحُسنِ أو قُبحِ الأفعالِ ، وقد أطالَ النَّفسَ في بيانِهِ كلٌّ مِنَ القاضي عبدِ الجبَّارِ في كتابِه : « شرحُ الأصولِ الخمسةِ » ، والإيجي في كتابِه « المواقف » .

وانظر تفصيلَ ذٰلك فيما كتبَه د . محمَّد عبد الفَضيلِ القوصيّ في كتابه « هوامش على الإقتصادِ في الإعتقادِ لحجَّةِ الإسلامِ الغزاليّ » الفصل الثَّاني ، ط ٢ ، (٢٠٠٦ م) مكتبةُ الإيمان ، القاهرة .

(١) في الأصلِ : (بالرُّوزكار) ، كلمةٌ فارسيَّةٌ تُنطَقُ كما أثبتُّها ، يختلفُ معناها باختلافِ سياقِها ؛ وهي هنا بمعنىٰ : أن يعملَ بالوقتِ والفترةِ أو الجزءِ مِنَ النَّهارِ ، أوبالسَّاعةِ بلُغةِ عصرِنا .

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٦) ومسلم (١٧٠٩) ، من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، بنحوه .

(٣) سورة النساء : (٦٥) .

في سَقيِ الأرضِ[1] . . ولٰكِنِ الِاعتبارُ بعُمومِ اللَّفظِ ، لا بخُصوصِ السَّببِ ، وقدْ قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « قَوْلِي لِلْوَاحِدِ كَقَوْلِي لِلْجَمَاعَةِ »[2] .

أَمَرَ اللهُ تعالىٰ بالتَّحكيمِ أوَّلاً ، ثمَّ بزَوالِ الحرَجِ ثانياً ؛ لأنَّ التَّحكيمَ وظيفةُ الظَّاهرِ وأدبُهُ ، وزوالَ الحرَجِ وظيفةُ الباطنِ وأدبُهُ ، وكمْ مِنْ مُقتَدِرٍ على التَّحكيمِ غيرُ مُقتَدرٍ علىٰ إزالةِ الحرَجِ ، ويُوشِكُ أنْ يكونَ المُريدُ الرَّسميُّ الَّذي لَبِسَ خِرقةَ التَّبرُّكِ صاحبَ التَّحكيمِ .

والمريدُ الحقيقيُّ الَّذي لبِسَ خِرقةَ الإرادةِ . . صاحبُ إزالةِ الحرَجِ .

وكلُّ ما ذكرنا مِنِ انسلاخِ المريدِ مِنْ إرادتِهِ معَ الشَّيخِ . . اندرَجَ في المفهومِ مِنْ هٰذه الآيةِ العزيزةِ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ .

وإذا أرادَ المريدُ أنْ يَسلُكَ طُرُقَ الأدَبِ معَ الشَّيخِ . . فليَتأدَّب بآدابِ القرآنِ ، ويَتنبَّهْ لِما نَدَبَ اللهُ الأمَّةَ إليهِ في صُحبةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ لقولِهِ تعالىٰ في سورةِ (الحجراتِ) : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[3] ؛ فليَعتبرِ المريدُ ، ويَتعلَّمْ ما في كتابِ اللهِ تعالىٰ مِنَ الآدابِ .

ومِثلُه[4] ما في سورةِ (النُّورِ) : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

---

(١) أخرج الخبر البخاري (٢٧٨٠) ، ومسلم (٢٣٥٧) من حديث سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه .

(٢) لم أقف عليه بهٰذا اللَّفظِ ، وقد أخرج التِّرمذيُّ (١٥٩٧) من حديث السيدة أُميمة بنت رُقيقة رضي الله عنها ، قالت : بايعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم في نِسوةٍ ، فقال لنا : « فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ » ، قلتُ : اللهُ ورسولُه أرحم بنا منا بأنفسنا ، قلت : يا رسول الله ؛ بايعنا ـ قال سفيانُ : تعني : صافِحنا ـ . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّما قولي لمئةِ امرأةٍ . . كقولي لامرأةٍ واحدةٍ » .

(٣) سورة الحجرات : (١ ـ ٥) .

(٤) في الأصل : (ومثل) ، ولعل المثبت هو الأنسب للسياق ، والله أعلم .

وَرَسُولِهِ ﴾[1] ، ففي هٰذه ما ذكرنا في مُلازَمةِ رِعايةِ الصُّحبةِ ، والمفارقةِ للشَّيخِ علىٰ بصيرةٍ .

وفي القرآنِ مِنْ هٰذا المعنَىٰ كثيرٌ يجدُهُ مَنْ يَطلُبُهُ ، وتفاصيلُ ما ينبغي أن يُؤمَرَ المريدونَ بهِ يطولُ .

ولٰكنَّ الَّذي لا بُدَّ منهُ ؛ ينبغي أنْ يُؤمَرَ المريدُ أوَّلاً بتَجديدِ التَّوبةِ ؛ لأنَّ التَّوبةَ هي أساسُ الأمرِ ، وقالَ بعضُ المشايخِ : لا يكونُ المريدُ مُريداً حتَّىٰ لا يَكتُبَ عليهِ صاحبُ الشِّمالِ شيئاً عشرينَ سنةً .

ولا يَقدِرُ المريدُ علىٰ حِفظِ التَّوبةِ إلَّا بدوامِ المحاسبةِ ؛ كما وردَ : (حاسِبوا أنفسَكُم قبلَ أنْ تحاسَبوا)[2] ، وطريقُهُ في ذٰلكَ أنْ يُحاسِبَ نفسَهُ عَقِبَ كلِّ مَكتوبةٍ ، ويَعتبِرَ ما اجتَرحَهُ بينَ الفَريضَتينِ ؛ فإنَّهُ إذا دامَ علىٰ هٰذه المحاسَبةِ بالصِّدقِ . . لا تزالُ عَثَراتُهُ تَقِلُّ حتَّىٰ تَنعدِمَ .

وكما أنَّ الأنبياءَ معصومونَ فالأولياءُ محفوظونَ ، فلا يُنكَرُ أنَّ في كلِّ حينٍ وزمانٍ جمعاً مِنَ الأولياءِ محفوظينَ في كلِّ قُطرٍ مِن أقطارِ الأرضِ .

ثمَّ إذا أدَّىٰ حقَّ المحاسَبةِ . . ربَّما تَرقَّىٰ إلىٰ أنْ يَكُفَّ عمَّا لا يَعنِيه قولاً وفِعلاً وإنْ كانَ مِنَ المباحِ في صِيغةِ الشَّرعِ ، وعندَ ذٰلكَ يَقِلُّ فُضولُهُ ، ويَتملَّكُ ظاهرُهُ سياسةَ العِلمِ ؛ فيُرجَىٰ أنْ يَترقَّىٰ بعدَ هٰذا إلىٰ مَقامِ المراقبةِ ، فيصيرُ باطنُهُ أيضاً تحتَ سياسةِ العلمِ كظاهرِهِ ، والمراقبةُ في اصطلاحِ مشايخِ الصُّوفيَّةِ : هو أنْ يُلازِمَ قلبَهُ عِلمُهُ بأنَّ اللهَ تعالىٰ ناظرٌ إليهِ ، فعندَ ذٰلكَ يَستَحْيِي مِنَ اللهِ الكريمِ حقَّ الحياءِ ، ويَحذَرُهُ في خَطَراتِ ضَميرِهِ كما يتَّقِيهِ في حَركاتِ جَوارحِهِ .

ثمَّ يُرقَّىٰ مِنْ هٰذا المقامِ إذا تَحقَّقَ بهِ إلىٰ مَقامِ المُشاهَدةِ ، ويَصِحُّ لهُ حينئذٍ

---

(١) سورة النور : (٦٢) .

(٢) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٦) ، وأحمدُ في « الزهد » (٦٣٣) من قولِ سيدنا عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه .

أنْ يقولَ : رأىٰ قلبي ربّي ، وهو مَقامُ الإحسانِ المشارُ إليهِ في قولِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : « ٱلْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ . . فَإِنَّه يَرَاكَ »[1] .

ثمَّ لأربابِ المشاهَدةِ مَواجِيدُ مختلفةٌ ؛ تَتَّفِقُ أصولُها وتَختَلِفُ فُروعُها .

وينقسمُ ذٰلك إلىٰ : تجلِّي الصِّفاتِ ، وتجلِّي الأفعالِ ، وتجلِّي الذَّاتِ ، وقدْ يُعبَّرُ عنهُ بعِلمِ اليقينِ ، وعَينِ اليقينِ ، وحقِّ اليقينِ ، وهٰذه الأحوالُ لأربابِها .

ومِنَ المقدِّماتِ المؤثِّرةِ المُجدِيةِ خيراً كثيراً للمُريدينَ أربعةُ أشياءَ ، اتَّفقَ المشايخُ الصُّوفيَّةُ عليها ، وعلىٰ حُسنِ تأثيرِها ؛ وهي : قِلَّةُ الكلامِ ، وقِلَّةُ الطَّعامِ ، وقِلَّةُ المنامِ ، والاعتزالُ عنِ النَّاسِ ، وقدْ قيلَ : بهٰذه الأربعةِ صارَ الأبدالُ أبدالاً[2] ، فليتَعاهَدِ المريدُ نفسَهُ بهٰذه الأربعةِ ؛ فإنَّهُ يجدُ ثَمَرتَها وبَركتَها .

وكلُّ ما أشرنا إليهِ وذَكرناهُ هي أحوالُ المشايخِ وبداياتُهم ونهاياتُهم ، وكلُّ ذٰلكَ مِيراثُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وصلَ إليهم بنسبةِ حُسنِ المتابَعةِ للرَّسولِ ، وصِدقِ الصُّحبةِ معَ الشُّيوخِ ، وإنَّما الخِرقةُ مُقدِّمةٌ صالحةٌ ، وتَصرُّفُ الشَّيخِ في ظاهرِ المريدِ مُقدِّمةُ التَّصرُّفِ في باطنِهِ ، وكلَّما طالَتْ صُحبتُهُ . . ازدادَ حُسنُ سِيرتِه[3] .

ومن كلامِه أيضاً رَحمةُ اللهِ عليه :

الطَّالِبُ الَّذي هَمَّتْ هِمَّتُهُ إلىٰ أعالي الدَّرَجاتِ في سُلوكِ طريقِ الحقِّ . . يَنبَغِي لهُ أنْ يَحسِبَ نومَ كلِّ ليلةٍ موتاً ، وانتِباهَهُ حشراً ؛ فَيُجَدِّدُ كلَّ يومٍ عزيمةً

---

(١) أخرَجه البخاريُّ (٤٧٧٧) ومسلمٌ (٩) من حديثِ سيدنا أبي هُريرةَ رضي الله عنه ، وأخرَجه مسلمٌ (٨) من حديثِ سيدنا عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه .

(٢) أورَدَ الغزاليُّ في « إحياء علوم الدين » (٣/٧٦) عن سَهلِ بنِ عبدِ اللهِ التُّستَريِّ قال : (ما صار الأبدالُ أبدالاً إلا بأربعِ خِصالٍ : بإخماصِ البطونِ ، والسَّهَرِ ، والصَّمتِ ، والاعتزالِ عنِ النَّاسِ) .

(٣) من قولِه : (وإذا صحَّ العبدُ) إلىٰ قولِه : (ازداد حسنُ سيرته) ، استدراكٌ بمقدارِ الورقتينِ من (ب) ساقط من (أ) وبها تُختَمُ الرِّسالةُ .

في العُبوديَّةِ ، ويَتَحرَّى الإستقامَةَ ، ويصونُ جَوارِحَه عنِ المكارِهِ ، وقلبَهُ عنِ الغفلَةِ عنِ اللهِ .

يكونُ نهارُهُ بجميعِ أجزائِهِ وآنائِهِ مُزَيَّناً بفِعلِ الرِّضَا ، وما يَدخلُ عليهِ مِنْ أمرٍ ضَرُورِيٍّ فيما يَرجِعُ إلىٰ أمرِ مَعاشِهِ لنَفسِهِ ، أو لمَنْ يَلزَمُهُ شرعاً أمرُهُ . . يَصرِفُ إليهِ مِنْ زمانِهِ بِقَدْرِ الحاجَةِ فَحَسْبُ ، ولا يُقدِمُ على اليسيرِ مِنْ ذٰلكَ إلَّا بعدَ الإستخارةِ وصِدقِ الإلتجاءِ ، ويكونُ فيهِ مُستَعاراً ؛ فيتعلَّقُ فيهِ بالمحَلِّ الأعلَىٰ ، ويُقلِّلُ الكلَامَ فيهِ إلىٰ أن يَخرُجَ منهُ ، ويَعُودَ إلىٰ مَواطنِ عباداتِهِ وأذكارِهِ بجوارحِهِ أيضاً .

وينبَغِي لهُ أنْ يَخرُجَ مِنْ رِعايةِ رُسُومِ العاداتِ ، فإنْ ضَعُفَ في بعضِ الأَحايينِ ، وأرادَ مُلابَسَةَ شيءٍ مِنْ رُسُومِ العاداتِ . . فيُكثِرُ البُكاءَ علىٰ ذٰلكَ ، ويَحذَرُ مُساكَنَةَ النَّفسِ والإستِرسالَ فيهِ .

فإنْ ضَعُفَ عن تَركِ السَّبَبِ . . فأَقصَىٰ ما يَنبَغِي لهُ أنْ يَهتَمَّ لقُوتِ عِيَالِهِ لسَنةٍ واحدةٍ وإنْ مَنَّ اللهُ تعالىٰ عليهِ بالقُوَّةِ ؛ حتَّىٰ لا يَهتَمَّ في عَشَائِهِ لغَدَائِهِ ، ويَرِدَ مَوارِدَ جمْعِيَّتِهِ غَضّاً طَرِيّاً غيرَ مُستَلِذٍّ بالإهتمامِ ، فهو الغايَةُ ، لا يَنطمِسُ نورُ فِطرَتِهِ بِحُكمِ جِبِلَّتِهِ .

والنَّومُ باللَّيلِ يُراعِي الإعتدالَ فيهِ ، ويأخُذُ حَظَّهُ مِنَ الخَلْوَةِ معَ اللهِ تعالىٰ ، وكلَّما وقفَ على الضَّرورةِ في قولِهِ وفعلِهِ في أمرِ مَعاشِهِ . . تَكمُلُ لهُ المواطَأَةُ بينَ القلبِ واللِّسانِ ، والتِّلاوةِ والأذكارِ ، ويَقِلُّ طُرُوقُ حَديثٍ علىٰ قَلبِهِ ، ويُصانُ قلبُهُ عنْ تَخيُّلِ ما رأىٰ وسَمِعَ ، ومَهما أَمكَنَهُ ألَّا يَرىٰ إنساناً . . كانَ أصلَحَ لهُ .

ويكونُ أبداً مفتُوحَ بابِ القلبِ إلى الآخرَةِ ؛ بذكرِ الموتِ والفِكْرِ في عُسْرِ نَفَادِ أيَّامِ الدُّنيا ، ويكونُ في صَلاتِهِ خاشِعاً ، وإمَّا مُتَخَشِّعاً ، غيرُ هٰذا فلا ، إلَّا إذا طَرَقَ قلبَهُ نَسيْمَةُ الأُنسِ ، واحتَوَتْ علىٰ قلبِهِ ، وجرَّدَتْهُ عن حديثِ النَّفسِ ، واستَلَبَتْهُ عن كلِّ مَرئيٍّ ومَسمُوعٍ ، وسَبَحَتْ بهِ في بحارِ الغُيوبِ ، وغَيَّبَتْهُ عن كلِّ

هاجِسٍ . . فعندَ ذٰلكَ لا يَبقَىٰ خشوعٌ ؛ لأنَّ الخشوعَ يَعصِرُ بَقِيَّةَ الوُجودِ ، وهٰذا قدِ اكتَسَىٰ ملابِسَ الوُجودِ بالحقِّ ، وتَجرَّدَ عن وُجودٍ يعصِرُهُ الخشوعُ .

وفي الوُضوءِ وتَناوُلِ الطَّعامِ يكونُ مُقِيماً على الذِّكرِ ، ويَتعاهَدُ نَفْسَهُ بتَركِ الشَّهواتِ إنْ لمْ يَقدِرْ علىٰ تَركِها بالكُلِّيَّةِ ، ويَتعاهَدُ نَفْسَهُ بالصَّومِ إنْ لمْ يكُنْ دائمَ الصَّومِ .

ثمَّ يَصُونُ قلبَهُ عنِ الاِعتدادِ بشَيءٍ مِنْ حالِهِ وعِلمِهِ ، ولا يَستَكثِرُ شيئاً للهِ تعالىٰ ، مَهْمَا وُفِّقَ في أنواعِ البِرِّ ، ويصونُ قلبَهُ عن مُباهاةِ المُكْثِرِينَ ، والإزراءِ على المُقِلِّينَ .

ويَتصدَّقُ كلَّ يومٍ ولو بِكِسْرَةٍ ، ويكونُ أبداً مُتَطَلِّعاً إلىٰ مَزيدِ الفَهمِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، ومَزيدِ العِلمِ فيما يَنفَعُ ويَضُرُّ ، ويَكشِفُ دفائِنَ النَّفسِ وشَهَواتِها الخَفِيَّةَ ؛ حتَّىٰ يُفَطِّنَهُ اللهُ تعالىٰ بحرَكةِ النَّفسِ وإنْ دَقَّ وخَفِيَ ، وعلىٰ قَدْرِ صَفاءِ القَلبِ المستَفادِ مِنْ كمالِ الاِستقامَةِ يكونُ شُعورُهُ بِخَفِيِّ حركةِ النَّفسِ .

والله الموفق والمعين
والحمد لله رب العالمين